الفصل الخامس

السلام

عزز انتصار محمد (ﷺ) على قريش من وضعه فى الجزيرة العربية، واستفاد خلال الشهور القليلة التالية من ذلك النصر، فأرسل فرقًا هجومية على القبائل التى تحالفت مع قريش فى غزوة الأحزاب، على أمل تشديد الحصار الاقتصادى على قريش، والذى كان يدمر تجارتها، مع جذب بعض القوافل التجارية الشامية إلى المدينة. وجعل نجاحه المستمر كثيراً من العرب يتساءلون عن جدوى إيمانهم التقليدى. لقد كانوا أناسًا عمليين، لايهتمون بالفكر التجريدى قدر اهتمامهم بفعالية نظامهم الدينى.

وبعد عودة الجيش المكى من المدينة، قال القائد خالد بن الوليد «كل رجل ذو عقل، يعرف الآن أن محمدًا (ﷺ) لم يكن يكذب»:

> قال الواقدى: لما انصرف عمرو بن العاص قال: قد علم كل ذى عقل أن محمدًا لم يكذب: فقال عكرمة بن أبى جهل: أنت أحق الناس ألا يقول هذا. قال عمرو: لم؟ قال: لأنه نزل على شرف أبيك وقتل سيد قومك. ويقال: الذى تكلم به خالد بن الوليد، ولا ندرى. لعلهما تكلما بذلك جميعًا. قال خالد بن الوليد: قد علم كل حليم أن محمدًا لم يكذب قط. قال: أبو سفيان ابن حرب: إن أحق الناس ألا يقول هذا أنت قال: ولم؟ قال: نزل على شرف أبيك وقتل سيد قومك أبا جهل. [مغازى الواقدى: ٢/ ٤٩١](١).

وحتى أكثر المتمسكين بالدين القديم بدءوا يوافقون على ذلك. وأسرت إحدى الهجمات على قافلة تجارية مكية، أبا العاص زوج زينب، والذى تخلى عن عائلته بعد

بدر بدلاً من أن يقبل الإسلام، أمر محمد (ﷺ) بإطلاق سراحه وإعادة تجارته له. وقد أسر كرم محمد (ﷺ) أبا العاص حتى أنه بعد أن سلم تجارته فى مكة، هاجر إلى المدينة، وأعلن إسلامه، ومن ثم استعاد عائلته ثانيًا، زينب وابنتها أمامة.

كانت ريح محمد (ﷺ) فى صعود فى الجزيرة العربية كلها، أما فى المدينة، فكان العكس هو الصحيح. أصبح الصراع مسمومًا أكثر من قبل، ولا يمر يوم إلا ويدس ابن أبى أنه لو ترأس يثرب، لما تعرضت للعداوة المميتة لأقوى مدينة فى بلاد العرب. كان أعداء محمد (ﷺ) لا يهاجمونه علانية إلا نادراً، ولكنهم شنوا عليه حملة تشهير. كانت محاولته ـ المختلف عليها بين عرب عصره ـ لتحسين حال المرأة، بمثابة هدية لهم، لترويج الإشاعات الحقودة والمنحطة على زوجاته. أعلن بعضهم أنه سيتزوج من إحدى زوجاته بعد وفاته، وانطوى ذلك على تلميح باغتياله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾ [سورة: الأحزاب: ٥٣][٢].

سرت همسات بأنه أصبح عجوزاً لا يشبع زوجاته، وأنه مصاب بفتق فى الخصية[٣].

وعندما كان الناس يتزاحمون داخل بيته لسؤاله أو الشكوى من أمر أو سؤال أمر، كاد بعضهم يهين زوجاته أمام عينيه، وكاد الأمر يفلت من السيطرة. فى الليل، عندما يتلطف الجو، تنبعث الحياة فى المدينة، ويخرج الناس إلى الطرقات، ويجتمعون للمسامرة، ولكن منذ حصار الأحزاب، أصبحت النساء تهاجم فى الطرقات. وعندما كانت نساء النبى (ﷺ) تخرجن، كان المنافقون يتبعونهن ويُضايقونهن بأبشع وأحط الأقوال، وعندما يواجهون بذلك يقولون لم نكن نعرفهن فى ظلام الليل، وكنا نحسبهن بعض الإماء:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ

أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً (٥٩) لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً (٦٠)﴾ [سورة الأحزاب: ٥٩ ـ ٦٠][٤].

استهلكت أحداث السنوات الأخيرة محمداً (ﷺ) عاطفيّا وبدنيّا، وكان دائمًا يعتمد عاطفيًا على نسائه، الأمر الذى جلعه عرضة للانتقاد، وعندما قرر أن يتخذ زوجة جديدة، بدأت الألسنة تلوكه ثانيًا[٥]. كانت زينب بنت جحش قريبة دائمًا من محمد (ﷺ)، فهى ابنة عمته، وهى أيضًا زوجة زيد، ابنه بالتبنى.

لقد رتب محمد (ﷺ) زواج زينب بزيد، ولم تكن زينب متحمسة لزيد، فهو لم يكن جذابًا، وربما كانت مهتمة بمحمد (ﷺ) نفسه. زينب الآن فى أواخر الثلاثينيات من عمرها، ولكنها ذات جمال أخاذ، وهى امرأة تقية، ماهرة فى المشغولات الجلدية، وكانت تعطى ما تحصل عليه من مكسب للفقراء. ويبدو أن محمداً (ﷺ) رآها بعين جديدة وأحبها فجأة عندما ذهب بعد الظهيرة إلى منزل زيد ليتكلم معه، ولكن لم يكن زيد بمنزله. لم تكن زينب تنتظر أى زوار، فذهبت للباب بملابس المنزل الكاشفة، وعندما رآها محمد (ﷺ) حول وجهه عنها قائلاً «سبحان الله مغير قلوب الرجال»[*]. بعد فترة قصيرة، تم طلاق زينب من زيد وزواجها بمحمد (ﷺ). لم يكن زواجها بزيد سعيداً، وكان زيد سعيداً بطلاقها. صدمت القصة بعض منتقدى محمد (ﷺ) من الغربيين الذين اعتادوا أكثر على الأبطال المسيحيين الزاهدين، ولكن يبدو أن المصادر الإسلامية لم تجد ما يسىء فى فحولة نبيها، كذلك لم تنزعج من أن يكون لنبيها أكثر من أربع زوجات. لماذا لا يعطى الله لنبيه بعض الميزات؟ ما اعتبره معارضوه فى المدينة فاضحًا هو زواجه من زوجة ابنه بالتبنى زيد، فالابن بالتبنى هو كالابن، حتى أنهم اتهموا محمداً (ﷺ) بزنا المحارم. أيد الوحى محمداً (ﷺ) بأن الله أراد هذا الزواج لأنه ليس من الخطأ الزواج من زوجة الابن بالتبنى:

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً (٣٦) وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى

(*) هذه الرواية عند علماء الحديث معلولة بثلاث علل تجعلها غير صحيحة، وقد انفرد بها ابن سعد، ومع هذا لا يكاد يخلو كتاب لمستشرق ـ عن النبى محمد ﷺ ـ منها.

النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)﴾ [سورة الأحزاب: ٣٦ـ ٤٠][٦].

كان محمد(ﷺ) لدى عائشة عندما جاءه الوحى بذلك، فقالت عائشة ـ الجانحة للغيرة دائمًا ـ بأسلوب لاذع: «ما أسرع ربك فى تلبية هواك»[*]. وكالعادة، انعكس التوتر بين نساء النبى (ﷺ) على المجتمع كله: زواج محمد (ﷺ) من إحدى قريباته، سوف يمد المجال السياسى لعائلة النبى (ﷺ)، داعيًا لقضية أهل البيت.

بسبب الفضيحة، أصر محمد (ﷺ) أن يحضر كل المجتمع حفل الزفاف. امتلأ الفناء بالضيوف، وكثير منهم معادون له، ولم يكن الجو العام سارًا. انتهى الحفل وبدأ الناس فى الانصراف، ولكن بقيت مجموعة صغيرة، سعيدة بالزفاف، ولكن غير مقدرة أن عليها الانصراف لترك الزوجين الجديدين. انصرف محمد (ﷺ) وذهب لزوجاته على أمل أن ينتبه الضيوف الغافلون لذلك فينصرفوا. سألته عائشة بحدة: كيف وجدت صاحبتك الجديدة؟ عاد محمد (ﷺ) بعد ذلك لزينب، ولكن بعد أن صرف أنس بن مالك الضيوف.

عندما دخل محمد (ﷺ) الغرفة، مد ستارة بينه وبين أنس، مرتلاً تنزيلاً جديدًا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾ [سورة الأحزاب: ٥٣][٧].

استمر التنزيل، ناهيًا نساء النبى (ﷺ) عن الزواج من أحد بعد موته، وأمرهن أن

(*) كذلك جاء عن عائشة أنها قالت: لو كان محمد ﷺ خافيًا شيئًا من الوحى لأخفى تلك الآية. البخارى فى كتاب التوحيد، حديث (٧٤٢٠).

يدنين عليهن من جلابيبهن ـ هن ونساء المؤمنين ـ حتى لا يعرفن ولا يؤذين من أحد:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٥٣ ـ ٥٩][٨].

أصبحت آيات الحجاب مثار خلاف شديد[٩]، وستستخدم بعد ثلاثة أجيال من بعد وفاة النبي (ﷺ) لتبرير تحجب كل النساء[*]، وفصلهن في أجزاء خاصة من المنزل. ولكن يجب رؤية الآيات في سياقها. نزلت الآيات في السورة ٣٣ [سورة الأحزاب]، والتي تتكلم عن أحداث الأحزاب، وما يمثله رعبها من خلفية للسورة. ولم توجه تلك الأوامر لكل النساء المسلمات ولكن لزوجات محمد (ﷺ). لقد جلبتها تهديدات أعداء محمد (ﷺ) الضمنية لحياته، وتجاوزاتهم وتعدياتهم شبه اليومية على زوجاته وعلى سكنه. لقد أجبر المناخ المسموم للمدينة محمدًا (ﷺ) على تغيير ترتيباته الشخصية. لم يعد سكنه مجالاً عامًا، وعلى من يريد التحدث إلى

(*) من يقولون بوجوب ارتداء النساء الحجاب، وهم التيار الرئيسي من علماء المسلمين، يؤسسون ذلك على آية وحديث: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة النور: ٣١]، وحديث عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ﷺ، وقال: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا»، وأشار إلى وجهه وكفيه. أبو داود في: اللباس حديث (٤١٠٤).

زوجاته أن يخاطبهن من وراء حجاب، وكلمة حجاب أصلها حجب. مثلت الستارة المضروبة كحجاب نوعًا من الحماية عن «الحرم»، مثل أستار الكعبة. فى أيام التعرض للهجوم، غالبًا ما ترمز أجساد النساء لمكمن الخطر على الأمة، وفى أيامنا الحالية، اكتسب الحجاب أهمية جديدة، فيما يبدو لحماية الأمة من تهديد الغرب.

لم يكن محمد (ﷺ) يريد أن يفصل حياته الخاصة عن حياته العامة. استمر فى اصطحاب زوجاته فى حملاته العسكرية، ولكن سيبقين فى الخيام، واستمرت بقية النساء المسلمات فى التحرك بحرية فى كل مكان. لم يكن المقصود من الحجاب فصل الجنسين، وفى واقع الأمر، عندما نزلت آية الحجاب، تم الفصل بين رجلين، محمد (ﷺ) وأنس، وكانت لفصل الزوجين محمد (ﷺ) وزينب، أو أى من زوجاته، فى منزله عن المجتمع العام. وكان نزول آية الحجاب نصرًا لعمر الذى كان يحث النبى (ﷺ) على حجب زوجاته لفترة ما، وكان ذلك حلاً سطحيًا لحد ما لمشكلة معقدة.

كان محمد (ﷺ) يريد تغيير سلوك الناس، وكان فرض ذلك الحاجز الخارجي حلاً وسطًا، لأنه لا يستلزم من المسلمين ممارسة الضبط الذاتى لأفعالهم، وإنما جاء الحل موافقة لعمر نظرًا للأزمة التى كانت تمزق المدينة.

ولكن الوضع لم يتحسن، فبعد أسابيع قليلة من آيات الحجاب، شن أعداء محمد (ﷺ) هجومًا شريرًا على عائشة لتدمير محمد (ﷺ) وكادت تُقسِّم الأمة[١٠]. مثلت عائشة هدفًا سهلاً، فهى المفضلة لدى محمد (ﷺ)، وجميلة، مفعمة بالحيوية، فخورة بوضعها، وغيورة، ومفوهة، وليست كاملة من حب الذات، وبلا شك فقد صنعت عداوات كثيرة. اختار محمد (ﷺ) عائشة لمصاحبته فى حملة ضد أحد حلفاء قريش والذى عسكر بجنوده قريبًا من المدينة بشكل يمثل تهديدًا لها. وطبقًا لجواسيس محمد (ﷺ)، كانت قريش وراء ذلك، حيث أقنعت حليفها بمهاجمة المدينة. نجحت الحملة: اعترضهم المسلمون عند عين المريسيع على شاطئ البحر الأحمر، فاستولوا على مائتى ناقة، وخمسمائة من الغنم، ومائتى من نسائهم، وكانت جويرية بنت الحارث، ابنة رئيس القبيلة بينهم. توقف قلب عائشة فور أن رأت جويرية، فقد كانت جميلة، وحين بدأت المفاوضات إثر الهجوم، عرض محمد (ﷺ) الزواج منها لعقد تحالف مع أبيها.

عسكر المسلمون فى المريسيع ثلاثة أيام، وبرغم النتائج الإيجابية للغزو، فالتوتر الذى يغلى بين المهاجرين والأنصار فجر حادثة خطيرة. فبينما كانوا يسقون جمالهم،

نشب شجار بين أجيرين، أحدهما لعمر بن الخطاب والثانى من حلفاء الخزرج، وسرعان ما نادى الأول على المهاجرين والثانى على الأنصار، الذين احتشدوا، وبخلاف ما أمر القرآن، بدءوا يتقاتلون. سمع عمر وبعض صحابة محمد (ﷺ) الآخرين بذلك، فهرعوا ليوقفوا القتال، مما أثار غضب ابن أبى:

> قال ابن إسحاق: «فبينا رسول الله (ﷺ) على ذلك الماء، وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار، يقال له جهجاه بن مسعود، يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان ابن وبر الجهنى، حليف بنى عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهنى: يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبى بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم زيد ابن أرقم، غلام حدث، فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، وأما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم! أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله (ﷺ) وذلك عند فراغ رسول الله (ﷺ) من عدوه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله (ﷺ): «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا ولكن أذن بالرحيل». وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله (ﷺ) يرتحل فيها، فارتحل الناس. [السيرة النبوية: ص٦٧٠ - ٦٧١](١١).

وفى إحدى مرات التوقف، تسللت عائشة لتقضى حاجتها، وعندما عادت، اكتشفت أنها فقدت قلادتها. وكانت القلادة هدية الزفاف من أمها، ولم تكن تتحمل فقدها، فذهبت تبحث عنها، وأثناء ذلك، حمل الناس هودجها على الجمل وساروا به ظنّا أنها داخله. عادت عائشة فوجدت القافلة تحركت، فجلست مكانها منتظرة أن يكتشف أحد غيابها فيعودوا ليأخذوها. ظهر صفوان بن المعطل، الذى كان قد تأخر

لبعض شئونه، فوضعها على ظهر جمله، ثم سار حتى لحقا بالقافلة. بدأت الإشاعات عن علاقة عائشة بصفوان، لاكتها ألسن المعارضين لمحمد (ﷺ). علق ابن أبى بابتهاج قائلاً إنه من الطبيعى أن تميل عائشة لصفوان، فهو أصغر وأوسم من زوجها. زلزلت الفضيحة المدينة، وبدت القصة كما لو كانت حقيقية، حتى أن بعض المهاجرين بدءوا فى تصديقها، بل إن أبا بكر بدأ يشك فى صحة القصة. والأخطر من ذلك، أن محمدًا (ﷺ) نفسه بدأ يداخله الشك فى براءة عائشة، وتلك علامة على تآكل ثقته فى تلك الفترة الصعبة، ولأيام قليلة، بدا مضطربًا وغير واثق، لقد كانت حاجته لعائشة كبيرة، وكان يخشى فقدانها، ولذلك بدا مضطربًا ومترددًا. لم ينزل عليه وحى، ولأول مرة منذ بداية النبوة، يصمت عنه الوحى طويلاً. استمر ابن أبى فى استغلال الموقف، واشتعلت الأحقاد القبلية القديمة عندما هددت الخزرج، قبيلة ابن أبى، بمحاربة الأوس الذين طالبوا بقتل من يسعر الفتنة. كان الوضع خطيرًا حتى أن محمدًا (ﷺ) اضطر لجمع رؤساء المدينة ليطلب منهم دعمهم إذا وجد أنه من الضرورى اتخاذ إجراء ضد ابن أبى الذى يهاجم عائلته.

فى النهاية، ذهب محمد (ﷺ) إلى عائشة، التى ذهبت إلى منزل أبويها فلبثت يومين تبكى، بعد أن عرفت ما يقال عنها، لا يغمض لها جفن ولا يرقأ لها دمع، حتى دخل عليها زوجها ليسألها قائلاً: «أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله، تاب الله عليه». وقفت عائشة التى لم تبلغ العشرين من عمرها رابطة الجأش وجف دمعها فورًا، وحملقت فى زوجها قائلة فى شرف عظيم:

> لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إنى بريئة، والله يعلم أنى بريئة، لا تصدقوننى بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة، تصدقوننى. والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا قول أبى يوسف ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾، ثم تحولت ورقدت لتنام فى مرضها صامتة ثانيًا(١٢).

أيقن محمد (ﷺ) الذى يعرف عائشة جيدًا أنها بريئة، وسرعان ما أخذته الغاشية التى تسبق الوحى، ووضع أبو بكر وسادة تحت رأسه، بينما بقى هو وزوجته مترقبين - فى حالة خوف - مما يأتى به الوحى.

ثم أفاق النبى (ﷺ) وهو يضحك قائلاً: «يا عائشة، أما الله فقد برأك». فقالت لها أمها: قومى إليه، فأجابتها عائشة بعند: لا أقوم إليه ولا أشكره، ولا أشكركما، فقد استمعتما إلى قذفى ولم تنكراه، لن أقوم إلا لله، ولن أشكر سواه(*).

تقبل محمد (ﷺ) توبيخ عائشة لهم فى تواضع، وذهب ليخبر المسلمين المنتظرين الآيات الجديدة:

(*) قال ابن إسحاق: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمى عليهن معه، فخرج بى رسول الله ﷺ.

قالت: وكان النساء إذا ذاك إنما يأكلن العلق لم يهجهن اللحم، وكنت إذا رحل لى بعيرى جلست فى هودجى، ثم يأتى القوم الذين يرحلون لى ويحملوننى، فيأخذون بأسفل الهودج، فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير، فينطلقون به. قالت: فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، وجه قافلاً، حتى إذا كان قريبًا من المدينة فنزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثم أذن فى الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجت لبعض حاجتى، وفى عنقى عقد لى، فيه جزع ظفار، فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى، فلم أجده، وقد أخذ الناس فى الرحيل، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم خلافى، الذين كانوا يرحلون لى البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أنى فيه، ثم أخذوا برأس البعير، فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب. قد انطلق الناس.

قالت: فتلففت بجلبابى، ثم اضطجعت فى مكانى، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلى. قالت: فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس، فرأى سوادى، فأقبل حتى وقف على، وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآنى قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ! وأنا متلففة فى ثيابى، قال: ما خلفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلمته، ثم قرب البعير، فقال: اركبى، واستأخر عنى. قالت: فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعًا، يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل=

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11)﴾ [سورة النور: ١١][١٤].

= الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بى، فقال أهل الإفك ما قالوا، فارتعج العسكر ووالله ما أعلم بشىء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة، ولا يبلغنى من ذلك شىء. وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ، وإلى أبوى لا يذكرون لى منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أنى قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بى، كنت إذا اشتكيت رحمنى، ولطف بى، فلم يفعل ذلك بى فى شكاوى تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل على وعندى أمى تمرضنى ـ قال ابن هشام: وهى أم رومان، واسمها زينب بنت عبد دهمان، أحد بنى فراس بن غنم بن مالك بن كنانة ـ قال: «كيف تيكم؟» لا يزيد على ذلك.

قالت: حتى وجدت فى نفسى، فقلت: يا رسول الله ـ حين رأيت ما رأيت من جفائه لى ـ: لو أذنت لى، فانتقلت إلى أمى فمرضتنى؟ قال: «لا عليك». قالت: فانتقلت إلى أمى، ولا علم لى بشىء مما كان، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قومًا عربًا، لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، إنما كنا نذهب فى فسح المدينة، إنما كانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مسطح بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف، وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن تيم. خالة أبى بكر الصديق رضي الله عنه، قالت: فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى مرطها، فقالت: تعس مسطح، ومسطح لقب واسمه عوف، قالت: قلت: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً، قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر؟ قالت: قلت: وما الخبر؟ فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك، قالت: قلت: أو قد كان هذا؟ قالت: نعم والله فقد كان. قالت: فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى، ورجعت، فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى، قالت: وقلت لأمى: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به، ولاتذكرين لى من ذلك شيئًا! قالت: أى بنية، خفضى عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.

قالت: وقد قام رسول الله ﷺ فى الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا أيها الناس، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل، والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتًا من بيوتى إلا وهو معى».

قالت: وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبى ابن سلول فى رجال من الخزرج مع الذى قال مسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن من نسائه امرأة تناصبنى فى المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله ـ تعالى ـ بدينها. فلم تقل إلا خيراً، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت، تضادنى لأختها، فشقيت بذلك.

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله، إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج، فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب =

لقد تم تجنب مأساة شخصية وسياسية، ولكن بقيت الشكوك، لقد أظهرت الحادثة كيف كان محمد (ﷺ) سهل المنال. فهل كان ـ كما يزعم ابن أبى ـ نارًا مستهلكة؟.

ولكن فى ذى القعدة (٦ هـ / مارس ٦٢٨م)، ، أعلن محمد (ﷺ) بيانًا مروعًا، أثبت فيما بعد أنه ممارسة غير عادية لعبقريته النبوية[١٥]. يبدو أنه لم تكن لديه خطة

= أعناقهم، قالت: فقام سعد بن عبادة، وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحًا، فقال: كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا، فقال أسيد: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: وتثاور الأوس، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر. ونزل رسول الله ﷺ، فدخل على.

قالت: فدعا على بن أبى طالب [رضوان الله عليه]، وأسامة بن زيد، فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى على خيرًا، ثم قال: يا رسول الله، لا نعلم إلا خيرًا، وهذا الكذب والباطل، وأما على فإنه قال: يا رسول الله، إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية، فإنها ستصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة ليسألها، قالت: فقام إليها على بن أبى طالب، فضربها ضربًا شديدًا، ويقول: اصدقى رسول الله ﷺ، فتقول: والله ما أعلم إلا خيرًا، وما كنت أعيب على عائشة شيئًا، إلا أنى كنت أعجن عجينى، فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتى الشاة فتأكله.

قالت: ثم دخل على رسول الله ﷺ، وعندى أبواى، وعندى امرأة من الأنصار، وأنا أبكى، وهى تبكى معى، فجلس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقى الله، وإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقول الناس فتوبى إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده» فوالله ما هو إلا إن قال لى ذلك، فقلص دمعى، حتى ما أحس منه شيئًا، وانتظرت أبوىّ أن يجيبا عنى رسول الله ﷺ، فلم يتكلما. قالت: وايم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى، وأصغر شأنًا من أن ينزل الله فى قرآنا يقرأ به فى المساجد ويصلى به، ولكنى قد كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى نومه شيئًا يكذب به الله عنى، لما يعلم من براءتى، أو يخبر خبرًا، فأما قرآن ينزل فى، فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك. قالت: فلما لم أر أبوىّ يتكلمان، قالت: قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟ قالت: فقالا: والله ما ندرى بماذا نجيبه، قالت: والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام، قالت: فلما أن استعجما على استعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا. والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أنى منه بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى. قالت: ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره، فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجى بثوبه ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت ولا باليت، وقد عرفت أنى بريئة، وأن الله ـ عز وجل ـ غير ظالمى، وأما أبواى، فوالذى نفس عائشة بيده، ما سرى عن رسول الله ﷺ، حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس، قالت: ثم سرى عن رسول الله ﷺ، فجلس، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان فى يوم شات، فجعل يمسح العرق عن جبينه، ويقول: «أبشرى يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك»، قالت: قلت: بحمد الله، ثم خرج إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن فى ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة =

محددة فى البداية، وإنما فقط بصيص من بصيرة داخلية. أخبر المسلمين أنه رأى فى المنام أنه وأصحابه فى المسجد الحرام، محرمين، ومعهم مفاتيح الكعبة، مملوئين سكينة وثقة بالنصر. وفى اليوم التالى، أعلن لأصحابه نيته للاعتمار، ودعاهم لصحبته. ويمكنك أن تتصور مدى خليط الخوف والتعجب وعدم اليقين والبهجة الذى غمر المسلمين من تلك الدعوة المهولة. أعلن محمد (ﷺ) بوضوح أنها ليست حملة عسكرية، فلن يحملوا السلاح خلال العمرة، وليس فى نيته انتهاك الحرم، حيث يمتنع القتال فيه. اعترض عمر قائلاً إنهم بدون سلاح سوف يساقون إلى الذبح، ولكن محمداً (ﷺ) كان صلبًا فى ذلك: «لن نحمل السلاح، نحن ذاهبون للعمرة، وليس لغير ذلك». المعتمرون لا يحملون سلاحًا، إلا ما قد يضطرون إليه ليحموا أنفسهم فى الطريق، فإذا دخلوا الحرم، تركوا ـ حتى ذلك السلاح الخفيف ـ خارجه. كان محمد (ﷺ) يريد أن يذهب إلى عرين عدوه بدون سلاح.

لم يخاطر بتلك العمرة أحد من حلفاء محمد (ﷺ) من البدو، وخرج معه حوالى ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، حتى ابن أبى قرر الخروج ومعه بعض المنافقين، وسمح لامرأتين من الأنصار شهدتا العقبة، كذلك اصطحب محمد (ﷺ) أم سلمة.

بدأ المسلمون العمرة، ومعهم جمالهم التى سيضحون بها. وفى أولى محطات الاستراحة، قلد محمد (ﷺ) أحد الجمال قلائد العمرة التقليدية، ثم بدأ التلبية «لبيك اللهم لبيك». انتشرت أنباء تلك العمرة الجريئة، إن لم تكن المتهورة، من قبيلة إلى أخرى، وتابع البدو أخبارها عن كثب من المدينة شمالاً إلى مكة جنوبًا. كان محمد (ﷺ) يعلم أنه يضع قريشًا فى موقف شديد الصعوبة. فكل عربى له الحق فى الحج والعمرة، وإذا منعت قريش، حامى الكعبة، أكثر من ألف معتمر يتبعون تقاليد العمرة، فإنها بذلك تكون قد تنكرت لواجبها. كذلك سيكون إذلالاً لا يمكن قبوله لو

= بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة، فضربوا حدهم. [السيرة النبوية: ص ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٦٧٧](١٣).

دخل محمد (ﷺ) مكة. سرعان ما قرر كبار قريش منع محمد (ﷺ) من دخول مكة، وبأى ثمن. وفى اجتماع طارئ، قرر القادة إرسال خالد بن الوليد فى مائتى فارس لمهاجمة أولئك المعتمرين غير المسلحين. وعندما علم محمد (ﷺ) بذلك الأمر الخطير، ألم به الكرب على قومه قريش. لقد أعمتهم الكراهية العقيمة التى أثارتها الحروب، حتى أنهم أصبحوا مستعدين لانتهاك تقاليد الحرم، والتى تقوم حياتهم عليها: «ما جدوى كل ذلك العناد؟ يا حسرة على قريش، لقد أنهكتهم الحرب وأضرت بهم. ما ضرهم لو خلوا بينى وبين العرب؟»:

> قال ابن إسحاق: فقال رسول الله (ﷺ): «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة». [السيرة النبوية: ص ٦٨٢][١٦].

اتخذت العمرة مساراً مختلفًا عما تخيله محمد (ﷺ)، وربما عما توقعه من أن يسمح له بدخول مكة، ومن أن تسنح له الفرصة ليشرح مبادئ الإسلام لقريش فى كنف السلام الذى تفرضه العمرة. ولكنه لا يستطيع التراجع الآن، وقال: «إن هم أبوا إلا القتال، فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، أو لينفذن الله أمره».

أصبحت مهمته الأولى أن يصل بالمعتمرين داخل حدود الحرم. وجد المسلمون دليلاً من قبيلة أسلم، قادهم لذلك فى طريق وعر ملتف. وفور دخولهم الحرم، ذكَّرَ محمد (ﷺ) المسلمين أنهم فى عمرة، يجب ألا تطغى عليهم مشاعر الحنين للوطن، ولا الزهو بالانتصار، عليهم أن يتوبوا عن أوزارهم، وعليهم أن يتجهوا الآن إلى بئر الحديبية وتترك جمالهم آثارها حتى يعرف خالد بن الوليد أين هم.

وعندما وصلوا الحديبية، بركت ناقة محمد (ﷺ) ورفضت التحرك:

> قال ابن إسحاق: فأمر رسول الله ﷺ الناس فقال: «اسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمض» فى طريق تخرجهم على ثنية المرار، مهبط الحديبية من أسفل مكة، قال: فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد

خالفوا عن طريقهم، رجعوا راكضين إلى قريش، وخرج رسول الله (ﷺ)، حتى إذا سلك فى ثنية المرار بركت ناقته، فقالت الناس: خلأت الناقة، قال: «ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها». [السيرة النبوية، ابن إسحاق ـ ط دار الكتب العلمية: ص ٦٨٢](١٧).

لم يفكر محمد (ﷺ) مطلقًا فى القضاء على قريش، ولكن أراد إصلاحها، اقتناعًا منه بأن استمرارها على حالها الاجتماعى القديم سوف يدمرها. ورأت قريش أن ذلك الاعتمار يبلغ مرتبة إعلان الحرب عليها، ولكن محمدًا (ﷺ) أراد أن يسجد أمام الحرم المكى امتثالاً لأوامر الله، وقد انصاعت ناقة رسول الله (ﷺ) كما انصاع الفيل [أى فيل أبرهة الأشرم] من قبل لأمر الله. لم تحقق الحروب شيئًا يبقى سوى الفظائع التى ارتكبها الجانبان. ما هذا الاعتمار إلا هجومًا بالسلام، وليس غزوًا. ولكن القليل من المسلمين أخذوا ذلك الكلام من محمد (ﷺ) على محمل الجد، فقد أسرتهم الأحداث وتوقعوا مفاجئات، ربما معجزة تُخرج القرشيين من مكة ويدخلوها ظافرين! ولكن بدلاً من ذلك، أمرهم محمد (ﷺ) بهدوء أن يرووا جمالهم ويجلسوا بجانبها. وما تلا ذلك هو الجلوس فى طاعة انتظارًا للإذن بدخول مكة، و ممتنعين عن أى عنف. كان محمد (ﷺ) يصور أنه يراعى تقاليد الحرم أكثر من قريش، والتى كانت تعد لقتاله، بينما هو يريد العمرة، مسالمًا بدون سلاح فى الأرض الحرام.

وصلت رسالة محمد (ﷺ) للبدو، فها هو رئيس خزاعة الذى يزور مكة، ركب إلى الحديبية ليرى ما يحدث، فروعه أن يرى أولئك المعتمرين ـ بدون سلاح ـ يُمنعون من دخول مكة:

قال ابن إسحاق: فلما اطمأن رسول الله (ﷺ) أتاه بديل بن ورقاء الخزاعى، فى رجال من خزاعة، فكلموه وسألوه: ما الذى جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربًا، وإنما جاء زائرًا للبيت، ومعظمًا لحرمته، ثم قال لهم نحوًا مما قال لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمدًا لم يأت لقتال، إنما جاء زائرًا هذا البيت. فاتهموهم

وجبهوهم، وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدًا، ولا تحدث بذلك عنا العرب. [السيرة النبوية: ص ٦٨٣][١٨].

كان يقود قريشًا فى تلك الأحداث ضد محمد (ﷺ)، سهيل بن عمرو، الوثنى التقى الذى كان محمد (ﷺ) يأمل فى دخوله الإسلام، وأبناء بعض عتاة أعداء الإسلام: عكرمة بن أبى جهل، فكان يعارض أى حل وسط، وصفوان بن أمية، الذى قتل أبوه فى بدر، ومن الجدير بالملاحظة، أن أبا سفيان، صاحب الذكاء الخارق، لم يكن له دور كبير فى الأحداث، ربما لأنه أدرك أن محمدًا (ﷺ) قد جعل قريشًا فى وضع المنتهك للتقاليد، وأنه لم يعد بوسع قريش أن تستمر فى التعامل معه بالتحديات التقليدية للجاهلية.

حاول المكيون قتل المعتمرين، ولكن فوت عليهم محمد (ﷺ) الفرصة بأن دخل منطقة الحرم. وحاول المكيون بعد ذلك شق صفوف المسلمين بدعوة ابن أبى لأداء العمرة، ولكن لدهشة الجميع، رفض ابن أبى أن يعتمر قبل محمد (ﷺ)، رغم أنه سوف يصطدم به ثانيًا فى المستقبل، إلا أنه كان مسلمًا مطيعًا فى الحديبية. أخيرًا، أفلح سهيل وصفوان فى إقناع عكرمة بالمفاوضات، وأرسلوا أحد حلفائهم من البدو، الحليس سيد الأحابيش، وهو رجل شديد التدين، وعندما رآه محمد (ﷺ) مقبلاً عليهم، أمرهم بإرسال البدن أمامه، فتأثر الحليس بذلك وعاد إلى مكة بدون أن يسأل محمدًا (ﷺ) عن قدومه، وقال لقريش: قد رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا [عن العمرة]. غضب صفوان قائلاً كيف يجرؤ الحليس ذلك البدوى الجاهل على إعطائهم أوامر! كان ذلك خطأ خطيرًا:

قال ابن إسحاق: إن الحليس غضب عند ذلك وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم. أيصد عن بيت الله من جاء معظمًا له! والذى نفس الحليس بيده، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. [السيرة النبوية: ص ٦٨٤][١٩].

اعتذر صفوان على الفور، وطلب من الحليس أن يبقى معهم حتى يجدوا حلاً يرضى الجميع.

أرسلت قريش مبعوثها الثانى، عروة بن مسعود الثقفى، وهو حليف هام لمكة. وضع عروة أصبعه على نقطة ضعف محمد (ﷺ) فقال له: أى محمد، أرأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إنى لا أرى وجوهًا وأرى أوباشًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك.

قال ابن إسحاق: جلس عروة بن مسعود الثقفى بين يدى رسول الله (ﷺ) وقال: «يا محمد، أجمعت أوشاب الناس، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟!» [السيرة النبوية: ص ٢٨٤][٢٠].

عرف محمد (ﷺ) أنه برغم ذلك العرض للقوة والوحدة، فلديه عدد قليل جداً من الحلفاء الذين يُعتمد عليهم، فالبدو الذين حالفوه، والذين رفضوا مصاحبته فى العمرة، التزامهم بالإسلام سطحى، ووضعه فى المدينة غير مأمون بشكل يبعث على اليأس، وعلم أن بعضًا من أصحابه المقربين لا يفهمون ما هو بصدده. كيف يناطح قريشًا ـ قبيلته الأصلية ـ بتلك الأخلاط المتنافرة؟ كانت قريش ـ بالتباين ـ متحدة بقوة، ومسلحة حتى أسنانها. أخبره عروة أنه حتى النساء والأطفال، أقسموا أن يمنعوا محمدًا (ﷺ) من دخول مكة. ولكن، ورغمًا عنه، تأثر عروة بإخلاص المسلمين لمحمد (ﷺ) فى الأزمة، وأخبر قريشًا ـ أنه على الأقل فى وقتهم الحاضر ـ أن محمداً (ﷺ) عنده أدوات الفوز، وأن عليهم إبرام نوع من الاتفاق معه(*).

قرر محمد (ﷺ) أن يرسل سفيراً من جانبه لمكة. فأرسل أمية بن خراش الخزاعى، ولكنها عرقبت جمله، وكادت تقتله لولا تدخل الحليس، ثم طلب محمد (ﷺ) من عمر أن يذهب، ولكن أجابه عمر بأنه ليس هناك أحد من قبيلته فى مكة يحميه من قريش، وفى النهاية أرسل عثمان بن عفان. استمعت قريش لعثمان، ولكن لم تقتنع، وسمحت له بأداء العمرة، ولكنه أبى، فقررت قريش إبقاءه رهينة، ولكنها أرسلت للمسلمين أن عثمان قتل.

(*) قال عروة لقريش بعد لقائه مع محمد ﷺ: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على قيصر وكسرى والنجاشى، والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، وقد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها. [الرحيق المختوم، طبعة دار الحديث ٢٠٠٤م، ص ٢٩٧].

كانت تلك لحظة رهيبة. بدا أن الحملة أشعلت نارًا غير محسوبة. وفى هذا الجو المشحون، دخل محمد (ﷺ) فى غاشيته، ولكن لم تأته رسالة من الله، وكان عليه أن يجد حلاً بنفسه، فأمعن الفكر فى العوامل التحتية للأحداث المخيفة الحالة، كما كان يفعل دائمًا، حتى يعرف ما الذى يجرى فى حقيقة الأمر. أخيرًا، سأل المسلمين أن يبايعوه، فأقسموا على ذلك تحت الشجرة فيما أسموه «بيعة الرضوان، أوبيعة الشجرة». اختلفت المصادر التاريخية فى البيعة، وربما تكون رواية الواقدى أكثرها إقناعًا. يقول الواقدى: إن المسلمين بايعوا محمدًا (ﷺ) على أن يطيعوا ما فى نفسه فى هذه الأزمة:

> قال ابن إسحاق: فحدثنى عبد الله بن أبى بكر: أن رسول الله (ﷺ)، قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، فدعا رسول الله (ﷺ) الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله (ﷺ) على الموت، وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله (ﷺ) لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفر. فبايع رسول الله (ﷺ) الناس، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها، إلا الجد بن قيس، أخو بنى سلمة، فكان جابر بن عبد الله يقول: والله لكأنى أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته. قد ضبأ إليها، يستتر بها من الناس. ثم أتى رسول الله (ﷺ) أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل. [السيرة النبوية: ص ٦٨٦](٢١).

لم يكن محمد (ﷺ) قادرًا على أن يأمر بالطاعة المطلقة له، ولكن خبر قتل عثمان هزه بشدة، حتى أن ابن أبى والمنافقين كانوا مستعدين للمبايعة. لقد كان محمد (ﷺ) مصممًا ـ فى أعماق غريزته ـ أن يتخذ مسارًا، علم أن الكثيرين سيجدون أنه لا يمكن التسامح بخصوصه، ولذلك أراد أن يضمن ولاءهم مقدمًا. بعد أن بايع الجميع، بدأت الأمور تتحسن، فأولاً جاء الخبر السار بأن عثمان على قيد الحياة، وثانيًا، قدم سهيل بن عمرو موفدًا من قريش، وكان محمد (ﷺ) دائم الاحترام له، فأدرك أن قريشًا تريد التفاوض، وتفاءل باسمه فقال: «قد سهل لكم أمركم».

لقد كان ذلك إنجازاً فى حد ذاته، فأخيراً، أجبر محمد (ﷺ) قريشًا على أن تأخذه على محمل الجد، ولاحت فرصة حقيقية لحل سلمى. تفاوض محمد (ﷺ) مع سهيل لمدة طويلة ولكن البنود التى اتفقا عليها أفزعت الكثير من أصحابه! أولاً: سيرجع المعتمرون بدون أداء المراسم هذا العام، ويعودون العام المقبل لذلك. ثانيًا: تعقد هدنة بين مكة والمدينة لمدة عشر سنوات، يعيد فيها محمد (ﷺ) إلى قريش كل من يدخل فى الإسلام ويفر منها إليه ضد رغبة وليه، ولكن لن تعيد قريش لمحمد (ﷺ) من يلجأ إليها من المسلمين. ثالثًا: تتحلل قبائل البدو من تحالفاتها القديمة، وتختار من جديد من تريد التحالف معه، المدينة أم مكة.

رسخ القرآن أنه من أجل إحلال السلام، على المسلمين أن يقبلوا جنوح عدوهم للسلام:

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)﴾

[سورة الأنفال: ٦١][٢٢].

ولكن وجد كثير من المعتمرين تلك الشروط غير مشرفة. وتعنى المعاهدة أن المسلمين لن يستطيعوا الهجوم على قوافل مكة التجارية. لماذا يتخلى محمد (ﷺ) عن الحصار الاقتصادى على قريش، والذى بدأت أنيابه تعض؟ لماذا رضى بأن يعيد الداخلين فى الإسلام إلى مكة، ولا يلزم مكة أن تعيد إليه من يخرج من المدينة؟ خلال السنوات الخمس الماضية، مات مسلمون، وفقد آخرون عائلاتهم وأصدقاءهم، فى سبيل الدين الجديد، والآن، يسلم محمد (ﷺ) كل شىء لقريش فى هدوء، ويعود المسلمون خانعين إلى المدينة بدون عمرة؟ أهانت الهدنة كل عصب جاهلى فى المسلمين:

> قال ابن إسحاق: وقد كان أصحاب رسول الله (ﷺ) خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح، لرؤيا رآها رسول الله (ﷺ) فلما رأوا ما رأوا من الصلح، والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله (ﷺ) فى نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون. [السيرة النبوية: ص ٦٨٧][٢٣].

ظهرت بوادر التمرد، وتشقق التضامن الهش الذى جمع المعتمرين خلال تلك البعثة المحفوفة بالمخاطر، وظهرت فجأة بوضوح التصدعات التحتية التى تواجدت دائمًا فى الأمة. هب عمر إلى أبى بكر متسائلاً: ألسنا مسلمين وهم كفار؟ لماذا نعطى الدنية فى ديننا؟.

اضطرب أبو بكر ولكنه أجاب: برغم كل شىء، فهو يؤمن بمحمد (ﷺ):

قال ابن إسحاق: فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال. بلى، قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه، فإنى أشهد أنه رسول الله، قال عمر، وأنا أشهد أنه رسول الله. [السيرة النبوية: ص ٦٨٦][٢٤].

قال عمر بعد ذلك إنه لو وجد مائة يتبعونه لا نشق عن محمد (ﷺ)، فهو لم يكن يشارك محمدًا فى رؤيته ذلك الوقت[٢٥](*). كان عمر، مثل الكثير من الأنصار والمهاجرين الذين جاءوا من عشائر هامشية، أو حتى القرشيين المهمشين، لم يكن يريد فقط إصلاح النظام الاجتماعى لمكة، ولكن كان يريد إنهاءه وإحلال نظام قرآنى صرف مكانه.

كان عمر شجاعًا، مؤثرًا للغير، وملتزمًا بحماس شديد بمثاليات العدالة والمساواة، والتى غابت عن الحياة المكية، ولكنه لم يكن رجل الحلم، وكان لا يزال به بعض تهور الجاهلية. لم يفهم أن قيم الرقة واللا عنف هى أيضًا محورية فى مثاليات الإسلام، وكان رجل عمل، وميالاً - مثل الجاهليين - إلى سيفه دون التمعن فى الأمور[٢٦]. احتار وارتبك مما صنعه محمد (ﷺ) فى الحديبية.

بعد الانتصار على قريش فى غزوة الأحزاب، كان المفترض أن تكون الخطوة التالية هى الضغط على قريش وتدميرها، ولكن ذلك لم يخطر مطلقًا على بال محمد (ﷺ). وذلك لأن انهيار مكة سيسبب كارثة لا يمكن تدارك آثارها على العرب، فهم متخلفون، ويحتاجون لعبقرية قريش التجارية لأقصى درجة. ولن تتدبر

(*) ما جاء عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «لولا أن الذى قَبِل ما كان بصلح الحديبية هو رسول الله ﷺ ما سمعت ولا أطعت، ولو أمر على أميرًا ما سمعت له ولا أطعت». كذلك روى عنه أنه قال: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمته، حتى رجوت أن يكون خيرًا، ولم نجد فى المصادر العربية ما جاءت به المؤلفة.

قريش الإسلام طالما استمرت الحرب بينها وبين المسلمين، مما يؤجج مشاعر الغضب والكراهية أكثر من أى شيء آخر. هَدَفَ محمد (ﷺ) من التخلى عن الحصار الاقتصادى إلى كسب قريش. لقد كان فيما أنجز فى الحديبية أبعد نظراً من أى شخص آخر، لم يكن يستسلم فى ضعف، بل كان يعرف تمامًا ما هو بصدد إنجازه. لقد كان يتحرك فى اتجاه حل سياسى ودينى لم يسبق له مثيل فى بلاد العرب، ويعنى هذا أن عليه ألا يتبع المسارات التقليدية؛ لأنها لن تذهب به بعيداً عن الواقع غير السعيد.

عندما نظر محمد (ﷺ) إلى الوجوه المذهولة واليائسة للمعتمرين، كان عليه أن يخبرهم بوجوب قبولهم لشروط الهدنة لأن الله هو الذى أملاها. لم يرض ذلك القاعدة العامة للمعتمرين، الذين توقعوا نوعًا من المعجزات، وكان بشكل خاص مخيبًا لآمال المنافقين الذين خرجوا سعيًا لمكاسب دنيوية. توتر الحال أكثر عندما عرف المسلمون نص المعاهدة. استدعى محمد (ﷺ) عليًا ليكتب نص المعاهدة، وعندما بدأ بالبسملة، اعترض سهيل وأصر على كتابة باسمك اللهم، ووافق محمد (ﷺ)، وأصابت المسلمين قشعريرة، ولكن الأسوأ ما زال فى الطريق:

> قال ابن إسحاق: ثم دعا رسول الله (ﷺ) على بن أبى طالب ـ رضوان الله عليه ـ فقال: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله (ﷺ): «اكتب باسمك اللهم»، فكتبها، ثم قال: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله (ﷺ): «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه». [السيرة النبوية: ص ٦٨٧][٢٧].

وفى هذه اللحظات الفارقة، ظهر فى المشهد فور توقيع اتفاقية الهدنة، أبو جندل بن سهيل. لقد دخل أبو جندل فى الإسلام، فحبسه سهيل فى بيت العائلة لمنعه من الهجرة إلى المدينة. نجح أبو جندل فى الهرب، وجاء إلى الحديبية يرسف فى قيوده ليلحق بالمسلمين:

قال ابن إسحاق: فبينا رسول الله (ﷺ) يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد، قد انفلت إلى رسول الله (ﷺ)، وقد كان أصحاب رسول الله (ﷺ) خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح، لرؤيا رآها رسول الله (ﷺ)، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله (ﷺ) فى نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون، فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلبيبه، ثم قال: يا محمد، قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، فجعل ينتره بتلبيبه، ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتنوننى فى دينى؟!، فزاد ذلك الناس إلى ما بهم. [السيرة النبوية: ص ٦٨٧][٢٨].

علق ابن إسحاق على ذلك بطريقة تقليدية تهون من المسألة قائلاً: «فزاد ذلك من غم الناس».

كان ذلك نهاية الصبر لدى عمر، فقد أسرع إلى النبى (ﷺ) غاضبًا: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟

- بلى.

- ففيم نعطى الدنية فى ديننا؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟.

- يا بن الخطاب، إنى رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصرى ولن يضيعنى أبدًا.

- أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟.

- بلى. أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟.

- لا.

- فإنك آتيه ومطوف به[٢٩].

همد عمر، ووافق على الهدنة على مضض وارتباك، ولكن استمر المسلمون على غضبهم، ومرت لحظات خطيرة بدا كما لو كانوا على وشك التمرد. أعلن محمد (ﷺ) أنه برغم أنهم لم يصلوا الكعبة، فعمرتهم تمت حيث هم فى الحديبية، وعليهم أن يحلقوا رءوسهم وينحروا هديهم كما لو كانوا فى مكة. جاءه رد المسلمين فى

صمتهم التام، وحملقتهم فيه فى تجهم. رجع النبى (ﷺ) حزينًا إلى خيمته، ماذا يستطيع أن يفعل؟ وذكر لأم سلمة ما لقى من الناس. أشارت عليه بألا يكلم أحدًا، وإنما تنحر هديك، ثم تحلق رأسك، فاستمع لمشورتها وفعل ذلك، فاتبعه الناس، فنحروا وحلق بعضهم لبعض، حتى كادوا يقتلوا أنفسهم فى حميتهم.

بدأت رحلة عودة المعتمرين فى حالة نفسية أفضل، رغم بقايا الغضب، وبدا النبى نفسه مبتعدًا ومنشغلاً. وكان عمر خائفًا من أن تفسد مواجهته العنيفة للنبى (ﷺ) من صداقتهما بشكل لا يمكن إصلاحه، وتوقف قلبه وجلاً عندما استدعاه النبى (ﷺ)، ولكنه التقط أنفاسه عندما وجده متألقًا وكأنما أزيح عن كاهله حمل ثقيل، وأخبره محمد (ﷺ) بنزول سورة الفتح، أحب إليه مما طلعت عليه الشمس:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾ [سورة الفتح: ١ ـ ٤][٣٠].

لقد أظهر المسلمون إيمانهم بشجاعتهم لمصاحبة النبى (ﷺ) لتلك العمرة الخطرة، وأظهروا إيمانهم وثقتهم بمحمد (ﷺ) ثانيًا فى بيعة الرضوان.

ميز انتصار الحديبية المسلمين عن قريش، التى أظهرت أنها ما زالت أسيرة تكبرها وغطرستها الجاهلية، والمقاومة المتصلبة لكل ما تراه يمس شرف تقاليدها وأسلوب حياتها. بل كانت قريش مستعدة لذبح المعتمرين المسالمين بدلاً من قبول «الإذلال» فى سماحها بدخولهم الكعبة:

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٢٦﴾ [سورة الفتح: ٢٦][٣١].

ليس المسلمون رجال حرب، ولكن رجال حلم، تدعوهم روحهم للسلم واللين وتحمل الأذى، يتحالفون بذلك مع اليهود والمسيحيين، أهل الكتاب.

وبدلاً من أن يتخذوا مواقف عدائية، كما فعلت قريش فى الحديبية، يتذلل المسلمون أمام الله فى صلاتهم:

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ [سورة الفتح: ٢٩][٣٢].

لم يكن العنف أو حب الذات، بل روح الرحمة ومكارم الأخلاق والسكينة هى التى تجعل الأمة تنمو، كما فى الآية السابقة. لقد انتهت الحرب وحل زمان السلام المقدس.

فى الواقع، استمر الصراع، ولكن مثلت الحديبية علامة تحول. ظهر الصلح فى البداية غير مجز، ولكنه فتح أبوابًا جديدة للإسلام. قبل الصلح، لم يكن هناك من يستطيع أن يناقشَ الإسلام بطريقة عقلانية، بمعزل من مناخ الحروب وما تثيره من كراهية وأحقاد. ولكن الآن، بعد الهدنة، يتقابل الرجال فى سلام ويتحاورون ويتجادلون:

قال ابن إسحاق: فما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر. [السيرة النبوية: ص ٦٨٩][٣٣].

ويبدو أن سورة النصر نزلت فى ذلك الوقت:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾ [سورة الفتح: ١، ٣][٣٤].

لن يكون هناك احتفالات مغرورة بالنصر، ولا صيحات انتقام، وسيكون العهد الجديد معطرًا بروح العفو والعرفان، واستغفار النفس المسلمة اللوامة.

حسنت الحديبية من وضع الإسلام فى الجزيرة العربية، ولكن مثلها مثل إنجازات أخرى، قدمت القليل لوضع محمد (ﷺ) فى المدينة. استمر إحساس المعتمرين - من الأنصار والمهاجرين - بأنهم قد خدعوا، واستمر استياؤهم. وتساءل المهاجرون: كيف يكتسبون أرزاقهم إذا توقفوا عن مهاجمة قوافل مكة التجارية؟(*). أدرك محمد (ﷺ) أن عليه ألا يترك ذلك يتفاقم، وليس بمقدوره مهاجمة قريش، فوجه المسلمين شمالاً إلى خيبر المقر الجديد لقبيلة النضير اليهودية والتى تمثل خطراً عليهم، ويؤلب قادتها قبائل الشمال ضد المسلمين. وبعد عودة محمد (ﷺ) من الحديبية بقليل، وجه جيشًا من ستمائة مقاتل إلى خيبر، وابتهجت قريش بسماعها الخبر، لتيقنها من هزيمة المسلمين. كانت خيبر محاطة بالصخور البركانية مثل المدينة، ويحميها سبعة حصون قوية، لذلك رآها الناس منيعة على المهاجرين. ولكن استطاع المسلمون الاستفادة من النزاع الداخلى الذى أذن بانهيار الروح القبلية فى خيبر، كما كان فى المدينة. كان لكل قبيلة فى خيبر حكم ذاتى، ووجدت القبائل أنه من المستحيل أن تتعاون بفعالية خلال الحصار، وزاد من مشكلتها أن قبيلة غطفان حليفتها لم تظهر لمساعدتها، وبعد مرور شهر، طلب كبار اليهود السلام، وأصبحت خيبر بمثابة مقطع(**)، أى تابع، للمدينة، ولضمان المعاهدة، أخذ محمد (ﷺ) ابنة عدوه القديم حيى بن أخطب زوجة له. سعدت صفية الجميلة ذات السبعة عشر عامًا بدخول الإسلام، وأعطى محمد (ﷺ) أوامر صارمة بألا يتناول أحد أباها بشىء سيئ، وكان أبوها مات أثناء الحصار. وأخبر محمد (ﷺ) صفية بأنه إذا سخرت إحدى زوجاته من أصلها اليهودى، تجيبها قائلة «هارون أبى وموسى عمى».

> قال ابن سعد: استبت عائشة وصفية فقال رسول الله لصفية: «ألا قلت أبى هارون وعمى موسى؟» وذلك أن عائشة فخرت عليها. [الطبقات: ١٠/ ١٢٣](٣٥).

مثل ذلك الزواج أسلوب التصالح والعفو الذى كان يريد محمد (ﷺ) له أن يعم، فقد حان الوقت للتخلى عن كراهية وإسالة دماء العهد الماضى.

سعد محمد (ﷺ) عند عودته بالتئام شمل عائلته وعائلات المسلمين، فقد أرسل بعد صلح الحديبية إلى المهاجرين للحبشة بالسلام الجديد بينه وبين قريش، فهاجروا

(*) لم نجد أى أثر لهذا التساؤل فى المراجع المعتمدة.

(**) استخدمت الكاتبة كلمة «Vassals» والتى تعنى أرضًا يقطعها ذو الشأن لشخص أو لمجموعة فى مقابل ولائهم وقتالهم أعداءه، وشطر من إنتاجهم، وكان ذلك النظام سائدًا فى أوروبا حتى العصر الحديث.

هجرتهم الثانية إلى المدينة، وهناك لقى ابن عمه جعفر بن أبى طالب بعد غياب ثلاثة عشر عامًا. ومبكرًا فى تلك السنة نفسها، تزوج محمد (ﷺ) من رملة - المعروفة بكنيتها: أم حبيبة - التى مات زوجها فى الحبشة، وكان قد طلب من نجاشى الحبشة عقد ذلك الزواج بالوكالة عنه. كان ذلك عملاً سياسيًا، ذكيًا من محمد (ﷺ)، فأم حبيبة هى ابنة أبى سفيان.

مضى بقية العام فى هجمات تقليدية، بعضها كان استجابة لحلفاء محمد (ﷺ) اليهود الجدد فى الشمال [خيبر]. وفى عام (٧ هـ/ ٦٢٩م)، حان وقت العمرة المتفق عليها، فخرج محمد (ﷺ) ومعه ٢٦٠٠ معتمر، وعندما قاربوا الحرم، خرجت قريش من مكة طبقًا للاتفاق، وبقى كبارها يشاهدون دخول محمد (ﷺ) ومن معه مكة وهم يلبون بأصوات عالية: لبيك اللهم لبيك، والتى ترددت أصداؤها فى طرقات مكة الخالية، كما لو كانت تقريعًا قاسيًا لأهلها، ولا بد أن أهلها تأثروا بانضباط المسلمين، الذين لم تبدر منهم فلتات ابتهاج أو احتفال زائدة، ولا سخرية من قريش. تدفق المسلمون بعددهم الكبير فى صمت ووقار، يتقدمهم محمد (ﷺ) على ناقته القصواء، وعندما وصل الكعبة نزل عنها وقبل الحجر الأسود، ثم بدأ طوافه مع المسلمين كجسد واحد. لقد كان ذلك عودًا غريبًا لديارهم، وفاضت مشاعر المهاجرين بعودتهم، ولكنهم لم يتركوا لها العنان، رغم خلو مكة وكأنها مدينة أشباح.

من حول مكة، راقبت قريش - مرتاعة - العبد الأسود بلال يرتقى سطح الكعبة، ويدعو المسلمين بصوته الجهورى للصلاة، لتتردد أصداؤه وهو يؤذن: الله أكبر الله أكبر، أى إن الله أكبر من كل الأصنام التى بالكعبة، والتى لا تستطيع أن تفعل شيئًا لمنع ذلك الإذلال. لقد كان ذلك انتصارًا ظاهرًا لمحمد (ﷺ)، وأصبح كثير من شباب قريش أكثر اقتناعًا بأن الديانة القديمة فى احتضار.

وفى آخر ليلة لمحمد (ﷺ) فى مكة، استمتع بزيارة عمه العباس - الذى كان ما زال على الديانة القديمة - وخطب له ميمونة أخت زوجته أم الفضل، والتى ترملت مؤخرًا، ووافق محمد (ﷺ) آملاً فى أن يغرى ذلك العباس للدخول فى الإسلام، وأرسل - فى نوع من المجاملة الشغوب - دعوة لقريش لحضور ذلك الزفاف، لكن جاء سهيل ليخبر محمدًا (ﷺ) بأن الأيام الثلاثة المنصوص عليها فى الاتفاق قد انقضت، وأن عليه مغادرة مكة ومن معه. غضب سعد بن عبادة، زعيم الخزرج من

كلمات سهيل للنبى (ﷺ)، ولكن النبى (ﷺ) أسكته سريعًا قائلاً «لا عليك يا سعد، ولا يمكننا الإساءة لمن يأتى إلينا فى معسكرنا»(٣٦).

ولدهشة قريش، خرجت جموع المسلمين من مكة تلك الليلة فى نظام تام. لم تصدر احتجاجات ولا حتى محاولات لإعادة امتلاك ديارهم التى استولت عليها قريش. لقد أبدى المسلمون بانسحابهم السلمى ثقتهم فى عودتهم السريعة.

انتشرت أنباء العمرة فى الجزيرة العربية، وتزايد عدد البدو الذين يأتون المدينة للتحالف مع محمد (ﷺ)، بل أهم من ذلك، بدأ تيار مستمر من شباب قريش يتحول إلى الإسلام.

وعد محمد (ﷺ) فى الحديبية أن يعيد لقريش المتحولين الجدد إلى الإسلام اللاجئين إليه فى المدينة، ولكنه استطاع أن يجد ثغرات فى المعاهدة. أولاً، نصت المعاهدة على الرجال ولم تذكر النساء، ولذلك لم يعد محمد (ﷺ) أخت عثمان غير الشقيقة عندما جاءت مسلمة إلى المدينة، ولكنه أعاد إلى مكة أبا بصير، الشاب المندفع، مع مبعوثى قريش. وفى طريق العودة، قتل أبو بصير أحد المبعوثين، بينما فر الآخر إلى المدينة مذعوراً، وعندما لجأ أبو بصير إلى المدينة، سمع محمداً (ﷺ) يقول عنه «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد»، فعلم أنه سيسلمه ثانيًا إلى قريش، ففر ثانيًا، وأقام فى مكمن حرب على ساحل البحر الأحمر يُسمى سيف البحر، قريب من طريق القوافل المكية، وهناك لحق به المسلمون الساخطون الفارون من مكة، ومن ضمنهم أبو جندل بن سهيل، فقطعوا الطريق على قوافل مكة، فكأنما عاد الحصار الاقتصادى يمسك برقبة قريش مرة أخرى. وفى النهاية، توسلت قريش لمحمد (ﷺ) بأن يسمح لأولئك الشباب باللجوء إلى المدينة، ويلتزموا بالمعاهدة. بذلك انعدمت فعالية بند إرجاع المسلمين الجدد لمكة.

وفى عام (٨ هـ/ ٦٢٩م)، وصل إلى المدينة مجموعة أخرى من مسلمى مكة الجدد، بينهم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد. قال خالد: «لقد اتضحت المسألة، فالرجل بلا شك نبى».

> قال ابن إسحاق: قال خالد بن الوليد: «والله استقام المنسم، وإن الرجل لنبى، أذهب والله فأسلم، فحتى متى!». [السيرة النبوية: ص ٦٦٢](٣٧).

كان خالد خائفًا من الانتقام منه، فقد قتل هو وعمرو كثيرًا من المسلمين فى أحد، ولكن طمأنهما محمد (ﷺ) بأن الإسلام يَجُبّ ما قبله، ولهما الآن بداية جديدة تمامًا.

فى عام النصر السياسى ذلك، كان لمحمد (ﷺ) فرحته الخاصة. فقد أهدى له المقوقس حاكم الإسكندرية جارية مصرية مسيحية جميلة اسمها مارية. لم ترد الجارية الدخول فى الإسلام، فظلت سرية لمحمد (ﷺ)، أى أمة، ولكن إذا أنجبت يصبح وليدها حرًا. أصبح محمد (ﷺ) مغرمًا بها، وطغى عليه الفرح عندما أصبحت حاملاً فى نهاية عام (٧هـ/ ٦٢٩م). وسمى محمد (ﷺ) الوليد إبراهيم، وكان يحب أن يحمله فى طرقات المدينة، ويريد من المارة أن يروا جماله وشبهه به. ولكن جاء الحزن مع الفرح. فقد ماتت زينب بنت محمد (ﷺ) الكبرى بعد أداء العمرة بوقت قصير، ثم خسر اثنين من أحبائه من عائلته فى معركة مؤتة على حدود الشام: جعفرًا وزيدًا. نحن نعرف القليل عن تلك الحملة سيئة المصير. ربما أراد محمد (ﷺ) أن يضم القبائل العربية المسيحية كحلفاء للأمة الإسلامية كما فعل مع يهود خيبر(*)، فبعث فى عام ٨هـ جيشًا من ثلاثة آلاف رجل، وهاجمتهم كتيبة من الجيش البيزنطى(**) فى قرية مؤتة القريبة من البحر الميت. تولى قيادة الجيش زيد بن حارثة حتى قتل، ثم أخذها جعفر بن أبى طالب حتى قتل، وتلاهما عبد الله بن رواحة، حتى قتل أيضًا، وفى النهاية أخذها خالد بن الوليد، والذى ناور للعودة بالجيش إلى المدينة.

وعندما علم محمد (ﷺ) بالخبر، ذهب فورًا إلى بيت جعفر مذهولاً من أنه أرسل ابن عمه الحبيب لمقتله. كانت أسماء زوجة جعفر تخبز، وما إن رأت تعبيرات وجه محمد (ﷺ) الحزين حتى أدركت حدوث أمر جلل. سألها محمد (ﷺ) أن يرى ابنيها، فركع على ركبتيه واحتضنهما وهو يبكى. فور ذلك بدأت أسماء تنوح زوجها على الطريقة العربية، وأسرعت النساء لمواساتها، وطلب محمد (ﷺ) منهن

(*) كما جاء سابقًا، كانت غسان تعد العدة ومعها قوات الإمبراطورية البيزنطية لغزو المدينة.

(**) جاء فى سيرة ابن إسحاق أن عدد قوات البيزنطيين ومن حالفهم من قبائل الشمال مائة ألف مقاتل.

أن يحضرن لها طعامًا يكفيها للأيام القليلة التالية. ولما خرج محمد (ﷺ) عائدًا فى طرقات المدينة، جرت إليه ابنة زيد وألقت بنفسها بين ذراعيه، فاحتضنها وهو يبكى فى الطريق.

أساءت هزيمة مؤتة لوضع محمد (ﷺ) فى المدينة، وعندما عاد الجيش، استقبله أهلها بصيحات الاستهجان والازدراء، واضطر محمد (ﷺ) لفرض حمايته الشخصية على خالد. ولكن فى (جمادى الأولى ٨ هـ / نوفمبر ٦٢٩م)، تغير الموقف فى بلاد العرب بشكل هائل، فقد نقضت قريش المعاهدة بمساعدتها لحليفتها بنى بكر فى الهجوم على خزاعة حليفة المسلمين. طلبت خزاعة من محمد (ﷺ) النصرة على قريش، والتى أدركت أنها أعطت محمدًا (ﷺ) الحجة لغزو مكة.

ظل صفوان وعكرمة على تحديهما للمسلمين، ولكن بدأ سهيل يراجع نفسه، أما أبو سفيان، فقد ذهب أبعد من ذلك، ذهب إلى محمد (ﷺ) فى المدينة فى مبادرة سلام. لم تكن لأبى سفيان فى ذلك الوقت رغبة فى الدخول فى الإسلام، ولكنه أدرك منذ فترة أن المد أصبح فى صالح محمد (ﷺ)، وأن على قريش أن تفاوض لتحصل على أفضل اتفاقية ممكنة معه.

فى المدينة، زار أبو سفيان ابنته أم حبيبة، وقابل أصحاب محمد (ﷺ)، محاولاً إبعاد نفسه عن المواجهة المرتقبة بين المسلمين وأهل مكة. وعندما عاد إلى مكة، حاول تهيئة الناس لقبول الأمر المحتوم. وبعد رحيله عن المدينة، بدأ محمد (ﷺ) فى التخطيط لحملة جديدة.

وفى (رمضان ٨هـ/ يناير ٦٣٠م)، خرج محمد (ﷺ) من المدينة على رأس أكبر جيش فى تاريخ المسلمين، تطوع فيه تقريبًا كل رجال المسلمين، وانضم إليهم فى الطريق حلفاؤهم من البدو، حتى بلغ عدد المقاتلين عشرة آلاف. لم يفصح محمد (ﷺ) عن وجهته، ولكن بالطبع هناك من استطاع الإصابة فى تخمين المقصد. كانت مكة هدفًا محتملاً، ولكن كانت الطائف أيضًا، والتى ما زالت معادية للمسلمين، ولذلك بدأت هوازن فى جمع جيش هائل.

وفى مكة، خشى كبارها من غزوة استئصال لهم عندما علموا باقتراب جيش المسلمين. سارع كل من العباس وأبى سفيان وبديل، رئيس خزاعة، بالذهاب إلى معسكر المسلمين القريب من مكة تحت جنح الظلام، ليقابلوا محمدًا (ﷺ). قابلهم محمد (ﷺ) وسأل أبا سفيان إن كان مستعدًا للدخول فى الإسلام، فأجابه بأنه أصبح لا يعتقد فى الأوثان، ولكن لا يعتقد بعد فى نبوته! ولكن ذُهل أبو سفيان من مرأى أعداد المسلمين فى صلاة الفجر، ثم تحركهم بعد ذلك صوب مكة. أسرع أبو سفيان عائدًا إلى مكة، وهناك جمع الناس قائلاً فيهم:

ـ يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

ـ فقامت زوجته هند بنت عتبة صارخة فى وجهه وآخذة بشاربه:

ـ اقتلوا الحميت [وعاء السمن] الدسم الأحمس الساقين، قبح من طليعة قوم!

ـ فرد أبو سفيان:

ـ ويلكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به.

وصف أبو سفيان ما رآه فى معسكر المسلمين، وأدرك أن زمن التحدى قد ولى، وأثر تجهمه وجديته على معظم قريش، فتصرفت بمنتهى العملية، ولزمت بيوتها كعلامة على الاستسلام.

أرادت قلة من قريش القتال، فجمع عكرمة وصفوان وسهيل قوة صغيرة حاولت الهجوم على جناح خالد بن الوليد من الجيش الفاتح، ولكن سرعان ما انهزموا، وفر كل من صفوان وعكرمة خوفًا على حياتهما، أما سهيل، فقد ألقى سلاحه ودخل بيته. دخل بقية الجيش الإسلامى مكة دون مقاومة، ونصب محمد (ﷺ) خيمته الحمراء قريبًا من الكعبة، واجتمعت فيها أم سلمة وميمونة اللتان اصطحبتاه، وعلى وفاطمة. وبعد قليل جاءت أم هانئ أخت على تطلب العفو عن اثنين من أنسبائها اللذين اشتركا فى القتال. وبرغم أن كلاً من على وفاطمة أراد قتلهما، فقد أعطاها محمد (ﷺ) الأمان فورًا قائلاً: «لقد أجرنا من أجرت».

لم يجبر محمد (ﷺ) أحداً على اعتناق الإسلام، ولم يجعل أى أحد يحس بأى ضغط ليدخل الإسلام، فما زال الصلح هو هدفه.

نام محمد (ﷺ) قليلاً، ثم نهض لصلاة الفجر، ثم ركب ناقته القصواء ليطوف بالكعبة مكبراً، ومن معه من المسلمين، وترددت أصداؤهم فى مكة معلنة الانتصار النهائى للإسلام.

ثم أسقط أصنام الكعبة بدفعها بقوسه، وهو يردد:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

[سورالإسراء: ٨١][٣٨].

وداخل الكعبة، كانت صور الآلهة على جدرانها، فأمر بمحوها، ويقال إنه سمح ببقاء صورتى المسيح وأمه مريم (عليهما السلام)(*).

عند ذلك، كان بعض القرشيين قد خرجوا من بيوتهم وجاءوا يرون ماذا يفعل محمد (ﷺ)، فخطبهم داعياً:

قال ابن إسحاق: إن رسول الله (ﷺ) قام على باب الكعبة فقال: «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب». [السيرة النبوية: ص ٧٤٤][٣٩].

ثم تلا عليهم كلمات الله للبشرية جمعاء:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣][٤٠].

ـ ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل بكم؟

ـ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم.

ـ قال: فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

(*) لم نجد لهذا القول أثراً فى المراجع العربية.

لم يعد الكريم الحقيقى هو المغالى فى حب القبيلة لدرجة العدوانية على الآخرين، ولكنه ذلك الذى يملأ قلبه بتقوى الله ومخافته. لم يعد غرض القبيلة أو الأمة أن تستعلى على الآخرين، وليس عليها أن تسعى للتسيد على الآخر أو استغلاله أو غزوه أو تدميره، أو حتى إجباره على أن يصير نسخة من أعضائها، بل عليها أن تتعرف على ذلك الآخر، بما يعنى تفهم اختلافه. يجب أن تؤدى تجربة الحياة فى مجموعة ـ لا مفر من الاختلاف بين أفرادها ـ إلى أن يتقبل رجل القبيلة، أو المواطن بصفة عامة، معايشة الآخر. يجب أن تقود إلى تفهم وحدة الجنس البشرى. استطاع محمد (ﷺ) أن يغير تعريف النبل فى بلاد العرب، بأن جعله أكثر عالمية، وعاطفة، ونزع منه الأنانية.

ولكن هل كانت قريش مستعدة لذلك؟ أصدر محمد (ﷺ) عفواً عاماً، وفقط وضع حوالى عشرة أشخاص فى القائمة السوداء، التى شملت عكرمة (ورفع منها صفوان لأسباب معينة)، وأولئك الذين أثاروا الدعاية وألبوا ضد المسلمين، أو اعتدوا على زينب بنت النبى (ﷺ). سأل بعض أولئك الأوغاد العفو، ويبدو أنهم حصلوا عليه.

ذهب محمد (ﷺ) إلى الصفا بعد خطبته فى الكعبة، ودعا الناس للبيعة، فجاءته قريش فرداً فرداً، وهو جالس بين عمر وأبى بكر. وجاءت [متنقبة] من ضمن النساء هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان، والتى كانت فى القائمة السوداء لتمثيلها بجثة حمزة بعد معركة أحد، وقالت فى نغمة أشبه بالتحدى من الاعتذار:

ـ اعف عما سلف يا نبى الله، عفا الله عنك.

ـ سألها محمد (ﷺ) كما سأل بقية النساء:

ـ لا تشركن بالله شيئًا، ولا تسرقن ولا تزنين.

ـ أو تزنى الحرة؟

ـ ولا يقتلن أولادهن.

ـ ربيناهن صغاراً وقتلتموهم كباراً [يوم بدر].

فعرفها النبى (ﷺ).

قال الطبرى: ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله (ﷺ) على الإسلام، فجلس لهم ـ فيما بلغنى ـ على الصفا وعمر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجلسه يأخذ على الناس. فبايع رسول الله (ﷺ) على السمع والطاعة لله ولرسوله ـ فيما استطاعوا ـ وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله (ﷺ) من الناس على الإسلام. فلما فرغ رسول الله (ﷺ) من بيعة الرجال بايع النساء، واجتمع إليه نساء من نساء قريش، فيهن هند بنت عتبة، متنقبة متنكرة لحدثها وما كان من صنيعها بحمزة، فهى تخاف أن يأخذها رسول الله (ﷺ) بحدثها ذلك، فلما دنون منه ليبايعنه، قال: رسول الله (ﷺ) فيما بلغنى: «تبايعننى على ألا تشركن بالله شيئًا»، فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمرًا ماتأخذه على الرجال وسنؤتيكه، قال: «ولاتسرقن»، قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنة، وما أدرى أكان ذلك حلال أم لا؟ فقال أبو سفيان ـ وكان شاهدًا لما تقول: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل، فقال رسول الله (ﷺ): «وإنك لهند بنت عتبة» فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف عفا الله عنك! قال: «ولا تزنين»، قالت: يا رسول الله، هل تزنى الحرة! قال: «ولاتقتلن أولادكن»، قالت: قد ربيناهم صغارًا، وقتلتهم يوم بدر كبارًا فأنت وهم أعلم! فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب. [تاريخ الطبرى: ٣/ ٦٢، ٦٣][٤١].

لقد أسلمت هند وحقنت دماءها رغم ما فعلت، وأطلقها النبى (ﷺ) حرة، بل عملت هند بعد ذلك على أن يحوز زوجها وأولادها تكليفات هامة فى الأمة الإسلامية.

توسل أقرباء صفوان وعكرمة لإنقاذ حياتهما، ووعد محمد (ﷺ) بأنهما إذا قبلا قيادته، فيمكنهما الرجوع إلى مكة فى حرية. قبل الاثنان، ورجعا، وسبق عكرمة بالدخول فى الإسلام، وحياه محمد (ﷺ) بحنان، ومنع المسلمين من ذكر أبيه (أبى جهل) بأى سوء. وأعطى صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو بيعتهما لطاعة محمد (ﷺ)، ولكن لم يستطيعا الاعتراف به كنبى، ولكن لم تمر إلا أيام قليلة حتى نطقا بالشهادة.

بعد أن قام محمد (ﷺ) بتأمين مكة، كان عليه أن يتعامل مع هوازن وثقيف، اللتين جمعتا جيشًا من عشرين ألف رجل في الطائف القريبة من مكة. استطاع محمد (ﷺ) أن يهزمهما في موقعة حنين في نهاية شوال ٨هـ / يناير ٦٣٠م، ثم حالفت هوازن محمدًا (ﷺ). لم يستطع المسلمون الاستيلاء على الطائف، ولكن أصبحت المدينة معزولة تمامًا بفقدانها حليفها الرئيسي، قبيلة هوازن، مما جعلها تستسلم من نفسها بعد عام واحد.

عندما قسم محمد (ﷺ) غنائم انتصاره في حنين، أعطى أبا سفيان، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، نصيب الأسد. جاشت عواطف صفوان حتى استسلم على الفور قائلاً: أشهد أنه لا يعطي مثل هذا العطاء إلا نبي، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.[٤٢]. وتلاه سهيل بالقول نفسه.

انزعج بعض الأنصار من تفضيل محمد (ﷺ) لقريش عليهم. هل يتخلى عنهم محمد (ﷺ) الآن بعد إسلام قومه؟

طمأن محمد (ﷺ) الأنصار بخطبة حركت مشاعرهم حتى بكى أكثرهم، فهو لن ينسى أنه أتاهم مكذبًا فصدقوه، ومخذولاً فنصروه، وطريدًا فآووه، وعائلاً فآسوه:

> قال ابن إسحاق: أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار. [السيرة النبوية: ص ٨٠٣][٤٣].

لقد كان انتصارًا غريبًا، وقد يتعجب أي مراقب محايد متسائلاً: لماذا تقاتل المسلمون وقريش من بادئ الأمر؟[٤٤].

حفظ محمد (ﷺ) وعده، وعاد إلى المدينة مع المهاجرين والأنصار، لم يحاول أن يحكم مكة بنفسه، ولا أن يستبدل أصحابه بزعمائها، ولم يؤسس فيها نظامًا إسلاميًا خالصًا. احتفظ كبراء مكة السابقون بأوضاعهم في الحرم، كذلك استمر

مجلس تشاورها، والحالة كما كانت عليها. لم يعد تثبيت أعدى أعدائه فقط، بل رفع من أوضاعهم وأمطرهم بالهدايا.

عندما كان محمد (ﷺ) بصدد توزيع أمجد وظائف الحج، وهى السقاية والحجابة [طلب العباس - وفى رواية على - أن يجمع لبنى هاشم الحجابة مع السقاية] قال محمد (ﷺ) لمن كانت بيده الحجابة:

> قال الواقدى: ثم نزل رسول الله (ﷺ) ومعه المفتاح، فتنحى ناحية المسجد فجلس، وكان رسول الله (ﷺ) قد قبض السقاية من العباس وقبض المفتاح من عثمان، فلما جلس قال: ادعوا إلى عثمان! فدعى له عثمان بن أبى طلحة، وكان رسول الله (ﷺ) قال لعثمان يومًا، وهو يدعوه إلى الإسلام، ومع عثمان المفتاح، فقال: لعلك سترى هذا المفتاح بيدى أضعه حيث شئت! فقال عثمان: لقد هلكت إذًا قريش وذلت. فقال رسول الله (ﷺ): بل عمرت وعزت يومئذ. فلما دعانى بعد أخذه المفتاح ذكرت قوله ما كان قال، فأقبلت فاستقبلته ببشر واستقبلنى ببشر، ثم قال: خذوها يا بنى أبى طلحة تالدة، لا ينزعها إلا ظالم. [مغازى الواقدى: ٢/ ٨٣٧، ٨٣٨][٤٥].

تقريبًا، تم إنجاز عمل محمد (ﷺ)، وبعد عودته إلى المدينة، استمر معسكر ابن أبى فى المعارضة، وتكررت محاولة اغتيال محمد (ﷺ)، الذى حاول ردع أعدائه بإرسال حملات مرعبة أكثر للشمال. وفى ٩هـ/ أكتوبر ٦٣١م، أدرك أنه أصبح بالمدينة مسجد ضرار، فأمر بتدميره، وفى الصباح التالى، أجرى تحقيقًا عن أفعال من أراد اغتياله، فأسرعوا بالاعتذار له، حيث أظهر معظمهم أعذارًا مقبولة وتم العفو عنهم، برغم أن الأمة قاطعتهم لما يقرب من شهرين، ويبدو أن ذلك أنهى المعارضة المسلمة [معارضة المنافقين]. وتوفى ابن أبى بعد ذلك بقليل، ووقف محمد (ﷺ) على قبر عدوه القديم فى لفتة احترام.

لقد نجح أخيرًا فى إقامة مجتمع حيوى متحد فى المدينة، وأصبح عدد البدو الذين يقبلون بسيادته السياسية يتزايد، برغم أنهم لم يعتنقوا الإسلام. فى عشر سنوات فقط من الهجرة، غير محمد (ﷺ) الخريطة السياسية والروحية فى بلاد العرب، إلى غير رجعة.

ولكنه أصبح فى ضعف جسدى متزايد، ومع بداية عام (١٠هـ/ ٦٣٢م)، تزايد إحساسه بدنو أجله. ولقد أكربه موت صغيره إبراهيم، وبكى عليه بمرارة، رغم تيقنه بأنه سيلحق به سريعًا فى الفردوس. وعندما اقترب الحج، أعلن أنه سيقود الحجاج، وأخذ معه زوجاته كلهن، وعددًا هائلاً من الحجاج، ليصلوا مكة فى (٢٥ ذى القعدة ١٠هـ/ أوائل مارس ٦٣٢م)، وقاد المسلمين فى أداء طقوس الحج المحببة لقلوب العرب، معطيًا إياها أهمية جديدة. فبدلاً من تجمع كل قبيلة حول إلهها، تجمع المسلمون حول الكعبة التى بناها جداهم إبراهيم وإسماعيل (عليهما الصلاة والسلام)، وعندما سعوا بين الصفا والمروة، كانوا يقلدون سعى هاجر المحموم بحثًا عن الماء لوليدها إسماعيل (ﷺ) بعد أن تركهما إبراهيم (ﷺ) فى الصحراء، وأنقذهما الله بنبع المياه من أعماق الأرض فى زمزم. بعد ذلك، يقف الحجاج فى عرفة، حيث يقال إن الله عهد ميثاقًا مع آدم أبى البشر، ليتوحد الحجاج مع بقية البشر أبناء آدم، ثم يرمى الحجاج الجمرات الثلاث فى منى، تذكيرًا لهم بجهادهم المستمر ضد إغراءات الحياة الدنيا. وأخيرًا، يضحى الحاج بكبش، تقليدًا لتضحية إبراهيم (ﷺ)، بعد أن فدى الله ابنه به.

يقع مسجد نمرة قريبًا من جبل عرفة، فى الموقع الذى ألقى فيه محمد (ﷺ) خطبة الوداع. ذكرهم بأن يقيموا العدل بينهم، ويحسنوا معاملة النساء، ويتخلوا عن عداوات وحمية الجاهلية. يجب ألا يقاتل المسلمون بعضهم البعض فهم إخوة، ولا يغتصب بعضهم حق البعض. عرف محمد (ﷺ) أنه برغم تكراره التذكير، لم يستوعب كل المسلمين رؤيته. هل ذهب مجهوده هباء؟ سأل محمد (ﷺ) المسلمين بصوت عال: ألا هل بلغت؟

فأجابه المسلمون بإجماع هادر: اللهم نعم.

وكرر سؤاله، وكرروا الإجابة بصوت راعد: اللهم نعم، فرفع سبابته إلى السماء قائلاً: اللهم فاشهد:

قال ابن إسحاق: قال رسول الله (ﷺ) فى خطبة الوداع: «أيها الناس، اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن

أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعًا فى بنى ليث فقتله هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية. أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، أيها الناس: إن النسىء زيادة فى الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب مضر، الذى بين جمادى وشعبان. أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقّا، ولهن عليكم حقّا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولى، فإنى قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، أمرًا بينا، كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولى واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟ قالوا: اللهم نعم؛ فقال رسول الله (ﷺ): اللهم أشهد. [السيرة النبوية: ص ٨٦٨][٤٦].

عاد محمد (ﷺ) بعد حجة الوداع إلى المدينة، وبدأ الصداع والإغماء يعاودانه ويقعدانه عن نشاطه السابق، ولكن لم يخلد تمامًا لفراشه. كان عادة ما يشد على رأسه قطعة قماش لتخفف الصداع، ويذهب للمسجد ليؤم المصلين، ويخاطب الناس. وفى

أحد الأيام، صلى على شهداء أحد، ثم قال: «إن الله خير عبده بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة». يبدو أن الوحيد الذى فهم مغزى ذلك كان أبا بكر، فبكى، وطيب محمد (ﷺ) خاطره برقة قائلاً «هون عليك يا أبا بكر»:

> قال ابن إسحاق: حدثنى أيوب بن بشير أن رسول الله ﷺ خرج عاصبًا رأسه حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، فأكثر الصلاة عليهم ثم قال: «إن عبدًا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله». قال: ففهمها أبو بكر، وعرف أن نفسه يريد، فبكى وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا. فقال: «على رسلك يا أبا بكر». [السيرة النبوية: ص ٨٩٤][٤٧].

انهارت صحة محمد (ﷺ) فى النهاية، وكان فى حجرة ميمونة، فتجمعت عليه زوجاته فى حب، ولاحظن أنه يداوم السؤال «أين أنا غدًا؟» ففهمن أنه يتطلع ليوم عائشة، فاتفقن على أن يبقى هناك. رقد محمد (ﷺ) ساكنًا عند عائشة، وظن الناس أن به وعكة طارئة، ورغم أن أبا بكر كرر عليهم أن النبى (ﷺ) لم يعد ليعيش فى هذا العالم، فقد أنكروا ذلك. وعندما اشتد عليه المرض حتى لم يعد قادراً على الذهاب للمسجد، سأل أبا بكر أن يصلى بالناس، وكان فى بعض الأحيان يستطيع الخروج ليصلى جالسًا بجوار أبى بكر، ولكن دون أن تكون لديه قوة الجهر بقراءته.

وفى (١٢ ربيع ١١هـ/ ٨ يونيه ٦٣٢م)، أحس أبو بكر فى الصلاة أن الناس خلفه منفعلين، وأدرك على الفور دخول محمد (ﷺ) المسجد. كان يبدو أفضل، بل قال البعض إنهم لم يروه من قبل فى مثل هذا البهاء والجمال والنورانية، حتى سرت موجة من الفرح والطمأنينة فى المسلمين. أراد أبو بكر على الفور أن يترك الإمامة لمحمد (ﷺ)، ولكن ربت محمد (ﷺ) على كتفيه برقة ليبقى مكانه، وصلى بجواره جالسًا. عاد محمد (ﷺ) بعد الصلاة لحجرة عائشة، وبدا أن حالته تحسنت حتى أن أبا بكر استأذنه فى الرجوع إلى زوجته فى الجهة الأخرى من المدينة (السنح). وأذاع على والعباس النبأ الطيب بأن النبى (ﷺ) قد برئ من مرضه، ولكن فى المساء، أحست عائشة بجسده يثقل عليها، وأنه يفقد الوعى، ولكنها لم تدرك ماذا كان يحدث، حتى أنها قالت فيما بعد: «لقد كان يحتضر ولم أكن أعلم»، وسمعته يتمتم بكلمات «الرفيق الأعلى»، فقد جاء ملك الموت ليأخذ روحه لبارئها. نظرت إليه

عائشة، فوجدته قد رحل، فوضعت رأسه برفق على الوسادة، وبدأت فى العويل واللطم على وجهها بالطريقة التقليدية:

> قال ابن إسحاق: قالت عائشة رجع إلىّ رسول الله فى ذلك اليوم حين دخل من المسجد، فاضطجع فى حجرى، فدخل على رجل من آل أبى بكر، وفى يده سواك أخضر. قالت: فنظر رسول الله (ﷺ) إليه فى يده نظرًا عرفت أنه يريده، قالت: فقلت: يا رسول الله، أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال: «نعم» قالت: فأخذته فمضغته له حتى لينته، ثم أعطيته إياه، قالت: فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك قط، ثم وضعه، ووجدت رسول الله (ﷺ) يثقل فى حجرى، فذهبت أنظر فى وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى فى الجنة»، قالت: فقلت: خيرت فاخترت، والذى بعثك بالحق. قالت: وقبض رسول الله (ﷺ). [السيرة النبوية: ص ٨٩٧][٤٨].

عندما سمع الناس ندب عائشة، أسرعوا منقبضين إلى المسجد وحجرة عائشة، وذاع الخبر سريعًا حتى هرع أبو بكر عائدًا، فنظر إلى وجه محمد (ﷺ) وقبله، ثم بكى وقال: ما أطيبك حيًا وميتًا، بأبى أنت وأمى، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التى كتبت عليك فقد متها.

وفى المسجد، وجد أبو بكر عمر يخاطب الناس بانفعال وعصبية زائدين، مؤكدًا أن محمدًا (ﷺ) لم يمت، وإنما فارقت روحه جسده مؤقتًا وستعود، وأنه سيكون آخرهم موتًا، فقال له أبو بكر: على رسلك يا عمر! ولكن عمر استمر فى انفعاله، فتقدمه أبو بكر فى رباطة جأش وهدوء ليخاطب الناس، الذين تجمعوا حوله.

ذكر أبو بكر المسلمين أن محمدًا (ﷺ) قضى عمره فى نشر التوحيد وتعليمه للناس، فكيف يتخيلون أنه خالد فى الحياة الدنيا؟ فهذا يساوى القول بأنه إله آخر. لقد داوم محمد (ﷺ) على تحذير المسلمين من تقديسه كما قدس المسيحيون عيسى (ﷺ). لم يكن محمد (ﷺ) إلا بشرًا مثلهم.

إن رفض قبول وفاة محمد (ﷺ) يضاهى رفض قبول رسالته، ولكن طالما عبد المسلمون الله بإخلاص، فسيذكرون محمدًا (ﷺ) فى عقولهم، وقال: من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حى لا يموت. ثم تلا عليهم

الآيات التى أنزلت بعد أحد حينما صدمت الإشاعة الكاذبة بموت محمد (ﷺ) كثيراً من المسلمين :

قال ابن إسحاق : «قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله (ﷺ) قد توفى، وإن رسول الله (ﷺ) ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل مات، ووالله ليرجعن رسول الله (ﷺ) كما رجع موسى، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله (ﷺ) مات.

قال : وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر، وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على رسول الله (ﷺ) فى بيت عائشة، ورسول الله (ﷺ) مسجى فى ناحية البيت، عليه برد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله (ﷺ). قال : ثم أقبل عليه فقبله، ثم قال : بأبى أنت وأمى، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا. قال : ثم رد البرد على وجه رسول الله (ﷺ)، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال : على رسلك يا عمر، أنصت، فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبوبكر لا ينصت أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت. قال : ثم تلا هذه الآية : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [سورة آل عمران : ١٤٤]، [السيرة النبوية : ص٨٩٧، ٨٩٨](٤٩)(٥٠).

صدم كلام أبى بكر المسلمين، بما فيهم عمر :

قال ابن إسحاق : قال عمر : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، قال : أخذها الناس عن أبى بكر، فإنما هى فى أفواههم، قال : وقال : أبوهريرة : قال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى، وعرفت أن رسول الله (ﷺ) قد مات. [السيرة النبوية : ص ٨٩٨](٥١).

كان محمد (ﷺ) مثيراً للجدل فى موته كما كان مثيراً للجدل فى حياته. عدد قليل جداً من أتباعه استوعبوا نبوته استيعابًا كاملاً. فقد ظهر التصدع فى الأمة فى الحديبية، عندما توقع أكثر المعتمرين معجزة من نوع ما تجعلهم يتمون عمرتهم. ودخل الناس الإسلام لأسباب مختلفة، كثير منهم سعوا وراء العدالة الاجتماعية، ولكن لم يسع الكثير وراء مثاليات اجتناب العنف، والمصالحة. كان للثوار الذين اتبعوا أبا بصير فى قطع الطريق على قوافل مكة، أهداف مختلفة عن أهداف محمد (ﷺ)، وكان لرجال القبائل البدو الذين رفضوا الاعتمار مع محمد (ﷺ) دوافع سياسية أكثر منها دينية للالتزام بالإسلام. لم يكن الإسلام، من البداية، وحدة واحدة.

ليس هناك ما يدعو للاندهاش من ذلك النقص فى الوحدة. ففى الأناجيل، يظهر حواريو المسيح بلداء وغير مبصرين للمعنى العميق لمهمته.

الشخصيات النموذجية عادة ما تسبق عصرها ومعاصريها، فيتخلفوا عن فهمها. أما بعد موتها، فيتفرق أتباعها، كما انقسم البوذيون بعد وفاة بوذا إلى مدرستين. كذلك حدث فى الإسلام، والصدع الذى أصاب الأمة فى حياة محمد (ﷺ)، أصبح أكبر بعد وفاته. اعتقد كثير من البدو الذين لم يستوعبوا تمامًا رسالة القرآن، اعتقدوا أن الإسلام انتهى بموت محمد (ﷺ)، شعروا أنهم أحرار فى الانسحاب من الأمة الإسلامية، بالطريقة نفسها التى ينسلخون بها من أى معاهدة بعد موت زعيم القبيلة.

بعد موت النبى (ﷺ)، انتخب المسلمون أربعة خلفاء: أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليًا، وسماهم الناس «الخلفاء الراشدين». وشن الخلفاء حروب غزو خارج الجزيرة العربية، ولكن لم يكن لها فحوى دينية، وقد سلك الخلفاء الراشدون فى ذلك سبل رجال الدولة، فاستجابوا للفرصة السياسية التى أتاحها تفكك الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، أكثر من أن يكونوا اتبعوا فى تلك الفتوحات أوامر قرآنية.

أعطيت لاحقًا الحروب الأهلية التى أسفرت عن اغتيال عمر وعثمان وعلى والحسين صبغة دينية، برغم أنها كانت فى المقام الأول نتائج جانبية للتحول السريع والخارق للعادة لبلاد العرب من الحالة الهامشية إلى حالة القوة العظمى الرئيسية فى عالم ذلك الزمان.

كانت استجابة المسلمين لذلك أكثر إدهاشًا من الاضطرابات السياسية نفسها. لقد نضج فهمهم للقرآن عندما درسوا تلك الأحداث المأساوية. كمنت جذور تطور كل دين - وينطبق ذلك حرفيًا على الإسلام - فى رغبته فى العودة إلى الرؤية الأصلية لنبيه. انزعج الكثير من المسلمين من حياة الترف التى عاشها الخلفاء المتأخرون، وحاولوا العودة إلى الرؤية الصارمة الأولى للأمة. أثار المتصوفون وعلماء الكلام والمؤرخون والفقهاء أسئلة مهمة. كيف يمكن لمجتمع قتل قادته المخلصين أن يزعم أنه يسير فى هدى الله؟ أى نوع من الرجال عليه أن يقود الأمة؟ هل يمكن للحكام الذين ينعمون بمثل تلك الحياة المسرفة - بينما يغضون النظر عن فقر معظم أفراد الأمة - هل يمكن أن يكونوا مسلمين حقًا؟.

لعبت تلك المجادلات حول القيادة السياسية للأمة الإسلامية دورًا فى الإسلام مشابهًا للمجادلات اللاهوتية عن طبيعة المسيح التى مرت بها المسيحية فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين. وقد أسهمت روح الزهد الصوفى فى ذلك السخط العام على بذخ الحكام، وأدار الصوفيون ظهورهم للبلاط وحاولوا العيش فى خشونة مثلما عاش النبى (ﷺ)، وطوروا نموذجًا صوفيًا من رحلة المعراج. واعتقد الشيعة بوجوب تولى على وأبنائه من بعده الخلافة، فهم وحدهم ورثوا النعمة الإلهية فى النبى. طور الشيعة مذهبًا معارضًا للظلم الاجتماعى، وحاولوا العودة إلى روح المساواة القرآنية. وعندما نظرت تلك الحركات وغيرها إلى شخصية محمد (ﷺ) العملاقة، نحت بالرؤية القرآنية فى اتجاهات جديدة تمامًا، وأظهرت أن الوحى الأصلى يتمتع بالمرونة اللازمة لأى حركة عالمية للاستجابة للظروف والأحوال المستجدة.

منذ البداية الأولى، اعتبر المسلمون نبيهم مرجعًا فى تقييم ساستهم، وروحانية الأمة.

يحتاج زماننا إلى روح نقدية. يعتبر بعض المفكرين المسلمين أن ذروة مهمة محمد (ﷺ) هى جهاده ضد مكة، ويقصرون عن رؤية شجبه لأعمال الحرب، وتبنيه لسياسة اللاعنف.

كذلك يصر النقاد الغربيون على رؤية محمد (ﷺ) كرجل حرب، ويقصرون عن رؤية معارضته، منذ البداية، لروح التكبر والأنانية الجاهلية، التى أسفرت عن العدوان على الآخرين، ليس فقط فى عصره، ولكنها ما زالت متقمصة بعض قادة الغرب،

وقادة المسلمين على حد سواء. الآن يتحول النبى (ﷺ) ـ الذى كان هدفه السلام والتراحم ـ إلى رمز للفرقة والنزاع، فى تطور ليس فقط مأساويًا، ولكنه أيضًا خطير على الاستقرار الذى يعتمد عليه مستقبل البشر.

فى نهاية محاولتى الأولى لكتابة سيرة محمد (ﷺ) نقلت كلمات المعانى التى أبصرها العالم الكندى ويلفريد كانتويل سميث، حين كتب فى منتصف القرن العشرين قبيل أزمة قناة السويس(*)، ملاحظًا أن التطبيق الصحى للإسلام، ساعد المسلمين لعدة قرون على التمتع بقيم جديرة بالاحترام، بالمشاركة مع الغرب؛ لأن تلك القيم تنبع من تقاليد مشتركة.

لدى بعض المسلمين مشاكل مع الحداثة الغربية، فانقلبوا ضد ثقافات أهل الكتاب، بل وبدءوا فى أسلمة كراهيتهم الجديدة للمعتقدات الدينية الشقيقة، برغم أن القرآن قد صدق عليها بقوة. وحاجج كانتويل سميث بأنه إذا أراد المسلمون مقابلة تحديات العصر، فعليهم أن يتعلموا أن يفهموا تقاليدنا ومؤسساتنا الغربية؛ لأنها لن تختفى، وإذا لم تقم المجتمعات الإسلامية بذلك، فسترسب فى اختبار القرن العشرين. ولكنه أشار أيضًا إلى أن الغرب لديه مشكلة «عدم قدرته على إدراك أن يتشارك الكوكب مع آخرين، ليسوا أقل، ولكن مساوين».

> ما لم تتعلم الحضارة الغربية، ثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا، وتتعلم الكنيسة المسيحية، لاهوتيًا، أن تعامل الآخرين باحترام، بشكل رئيسى، فسيفشل كلٌ منهما فى التوافق مع القرن العشرين. ومشاكل ذلك [فى المسيحية] عويصة بقدر ما لمسناه فى الإسلام(٥٢).

أظهر التاريخ القصير للقرن الواحد والعشرين أن كلا الجانبين لم يتقن الدرس، وإذا تعين علينا اجتناب الكارثة، فعلى المسلمين وعلى العالم الغربى أن يتعلموا، ليس فقط التسامح مع الآخر، بل تقديره. ونقطة انطلاق طيبة هى شخصية محمد (ﷺ): رجل مركب، يعصى على التصنيف الأيديولوچى، أتى أحيانًا ببعض الأعمال التى يصعب أو يستحيل علينا قبولها، ولكنه ذو عبقرية أصيلة، وأسس دينًا، وتقاليد ثقافية، ليس على السيف، ولكن على السلام، كما يعنى اسم الدين، وعلى التصالح.

(*) العدوان الثلاثى: الإنجليزى والفرنسى والإسرائيلى على مصر عام ١٩٥٦م.